**بشير مبارك –المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة .**

## دور الأوقاف في التكافل الاجتماعي خلال العصر الوسيط– الأوقاف الزيانية بالمغرب الأوسط نموذجا –

الأوقاف من مظاهر الحضارة الإسلامية، فهي تعبر أساسا عن محبة الإنسان لفعل الخير وإحساسه العميق بضرورة التكافل الاجتماعي، فقد لعبت عبر مختلف العصور دورا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، كان له الأثر الكبير في تخفيف العبئ عن الميزانية العمومية، اتبع المسلمون هذا النظام منذ العهود الأولى للإسلام ومع مرور الزمن تكاثرت وتعددت أوجهه وأغراضه .

لقد استعمل الوقف في أغراض متعددة في مقدمتها العناية بالجانب الاجتماعي، فاعتبر في أزمنة مضت المصدر الأساسي والممول الرئيسي لكل ما يحتاجه المجتمع من جميع النواحي، حيث وجهت عائداته للعناية بالعلماء والطلبة والفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل .

إن موضوع الوقف في المغرب الأوسط هو محور دراستنا هذه الموسومة بـ: "**دور الأوقاف في التكافل الاجتماعي خلال العصر الوسيط – الأوقاف الزيانية بالمغرب الأوسط نموذجا –**"، وفيها لن أطوّل الحديث عن ماهية الوقف وشروطه والجدل الحاصل حوله بين الفقهاء، إنما أريد أن أبين دوره في الحياة الاجتماعية بالمنطقة كأحد النماذج الناجحة في التاريخ الإسلامي .

تتمحور الإشكالية التي يطرحها الموضوع في: دور الأوقاف في الحياة الاجتماعية بالمغرب الأوسط على العهد الزياني وواقعها للبحث في:

إسهامات الأوقاف في هذا الجانب، وللإجابة عن هذه الإشكالية يتوجب علينا الإجابة عن تساؤلات فرعية أهمها:

– ما مفهوم الوقف ؟

– ما طبيعة الأوقاف الزيانية ؟

– ما هي الإسهامات المسجلة للبلاط الزياني في الوقف ؟

– كيف خدمت الأوقاف الجانب الاجتماعي في المغرب الأوسط على العهد الزياني؟

وللإجابة عن إشكالات البحث وتساؤلاته كان لابد من اعتماد واستخدام منهج تاريخي معين وذلك بالرجوع إلى المادة العلمية المبثوثة في مختلف أنواع المصادر التاريخية التي تناولت الموضوع أو طرقته في إحدى جوانبه، وحينما يتعذر علينا الحصول على المادة التاريخية نميل إلى استقراء مختلف الأفكار واستنتاج بعض الحقائق وذلك بمقارنة النصوص التاريخية مع بعضها البعض .

ما يلاحظ على الدراسات المتخصصة أنّها اهتمت كثيرا بالكتابة حول التاريخ السياسي للدولة الزيانية، عكس المواضيع الاجتماعية التي لم تأخذ حقها الكامل من الدراسة مثل موضوع الأوقاف، وذلك ربما راجع لصعوبة الكتابة في مثل هذه المواضيع أو نقص المادة العلمية .

قبل الخوض في الموضوع رأيت أن أعرف الوقف لغة واصطلاحا كضرورة تتطلبها الدراسة .

**01– ماهية الوقف:**

الوقف في اللّغة من الوقوف خلاف الجلوس فيقال: "وقف بالمكان وقفا ووقوفا فهو واقف"، ويقال أيضا "وقف الأرض على المساكين وقفا أي حبسها"[1] ويعني أيضا المنع[2].

أما اصطلاحا فللوقف مفاهيم كثيرة اخترنا منها ما يلي: الوقف نظام إسلامي عريق عرفته الشعوب الإسلامية في فترات مبكرة من تاريخها فهو"الإمساك والمنع، أي الإمساك عن الاستهلاك والبيع وسائر التصرفات وإمساك المنافع والعوائد ومنعها عن كل أحد غير ما أمسكت أو وقفت عليه"[3]، واصطلح عليه أيضا أنّه: "وضع أموال وأصول منتجة في معزل عن التصرف الشخصي وتخصيص خيراتها ومنافعها لأهداف خيرية محددة شخصية أو اجتماعية أو دينية عامة"،[4] كما يعني أيضا حماية شيء ما ومنع طرف آخر من تملكه، وهذا النوع من الوقف ينطبق على أراضي الدولة التي فتحها المسلمون عنوة، حيث تبقى هذه الأرض في أيدي ملاكها الأصليين على أن يدفعوا خراجها، وليس لهم الحق في بيعها أو رهنها، وقد عرفته بعض الدراسات بأنه:"وهو مؤسسة اجتماعية في غاية الأهمية دأبت على تقديم خدمات جليلة للمجتمع سواء في مجال الرعاية الصحية أو التعليمية أو إسعاف الفقراء، والمساكين، والغرباء والاهتمام بالمنشآت التعليمية، وكان هذا بفضل إقبال عدد كبير من شرائح المجتمع على وقف أجزاء من ثرواتهم خدمة لمصالح المسلمين، فتنوعت المحبوسات بين عقارات، ورباع بل شملت حتى الثروات المنقولة كالعبيد، والحيوانات، وغلال الأشجار، والأسلحة وغيرها"[5].

وعموما فالوقف هو وثيقة شرعية يستند عليها ويلتزم الواقف احترامها وأهله والمستفيدون منه والسلطة[6]، وبالتالي هو:"عملية شرعية قانونية ينشأ عنها هبة تنفي مالكها حق التصرف فيها"[7].للوقف أسس يقوم عليها منها أن يكون الواقف صاحب حق كامل وحر التصرف في ممتلكاته التي يريد وقفها، وأن يكون ممتلكا لكل قواه العقلية بالغا عاقلا حرا، أما الشيء الموقوف يجب أن يكون ممكن ترتيب حق انتفاع عليه بمعنى أن يكون عقارا ثابتا[8] .

إذن الأوقاف من مظاهر الحضارة الإسلامية، فهي تعبر أساسا عن محبة الإنسان لفعل الخير وإحساسه العميق بضرورة التكافل الاجتماعي، وقد اتّبع المسلمون هذا النظام منذ العهود الأولى للإسلام ومع مرور الزمن تكاثر وتعددت أوجهه وأغراضه، يشرف القاضي على كتابته بصيغة معينة ويتم ذلك بحضور الواقف والشهود، فتحدد أغراضه وكيفية الاستفادة منه وانتقاله وعوامل نموه وتعيين المشرفين عليه وشروطهم وفي الأخير يذكر تاريخ الوقف وتختم صيغته بتوقيع الشهود .

**02- مشروعية الوقف:**

لقد شرّع الفقهاء الوقف وأجازوه حيث استندوا في ذلك على بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة السلف الصالح والتابعين للتأكيد على مشروعيته، رغم أن هذه الآيات لم تتضمن قولا صريحا يحمل مصطلح وقف بل دعت إلى فعل الخير، كقوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**"[9]، وقوله كذلك: " **لَنْ تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ شَيْىءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**"،[10]

كما استندوا على بعض الأحاديث النبوية الشريفة لتأكيد مشروعية خاصة منها تلك التي دلّت على فعل الخير، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له**"[11] فاعتبرت الصدقة الجارية التي يلحق الإنسان فضلها بعد موته كوقف لصاحبها .

إنّ للوقف نظام دقيق يقوم عليه فالناظر[12] أو الوكيل أو المشرف الرئيسي يسهر على تطبيق ما جاء في الوثيقة الوقفية من شروط ويكون مسئولا كذلك على تنميته واستعماله في أوجه معينة،[13]، وتختلف الموقوفات

من شخص لآخر فهناك من يوقف عقارا أو أرضا أو فندقا أو دكانا أو غلات أشجار أو خزانات كتب أو آبار وغيرها كما ذكرت لنا ذلك كتب التاريخ [14] .

**03 – الأدوار الاجتماعية للوقف في المجتمع الزياني:**

لقد انطلق الوقف من صميم الفكرة الدينية نحو الاهتمام بالفرد والعمل على تأهيله بصورة تحقق له حياة كريمة، وإتاحة الفرصة له لكي يكون مساهمًا في البناء الحضاري لمجتمعه وأمته، هذه الفكرة تنطلق من ما يسمى بـ" : **التكافل الاجتماعي**"، وهو أن يتكافل الأفراد وأن ينضموا إلى بعضهم البعض بالشعور والقول والفعل معًا، ليكون كل واحد فيهم عونًا لأخيه لاسيما في مجال الضروريات الحياتية أو الحاجيات الأساسية ولعل هذا هو الأصل الشرعي لعلاقة المسلمين فيما بينهم[15] .

فالوقف استعمل في أغراض متعددة، في مقدمتها العناية بالمساجد، والمدارس، والزوايا، كما وجّهت عائداته للعناية بالعلم، والعلماء، والطلبة، والفقراء، والعجزة ،واليتامى، وأبناء السبيل، وفي هذه الدراسة سأركز على الدور الاجتماعي للوقف بمنطقة المغرب الأوسط( الجزائر) على العهد الزياني .

إنّ الأوقاف ترتبط دائمًا بتنمية المجتمع وتقوية روابطه، فهي بالمحصلة أموال مجتمعية أهلية تصرف إلى جهات اجتماعية محتاجة، ليحدث التوازن الاجتماعي بين جميع الفئات والشرائح، وليكتمل عود الفئة الاجتماعية القاصرة أو الضعيفة على سوقها، ولتتمكن من مزاولة دورها في المجتمع، ولعل السر في نجاح الوقف هو استمراره ودوامه[16] .

إن مؤسسة الأوقاف تلقت الدعم المالي من الدولة والأغنياء والمحسنين ومن الأراضي الفلاحية الموقوفة والعقارات التابعة لها، حيث تذكر بعض المصادر أن الأوقاف آنذاك كانت ضخمة، فمصلحتها تكفلت

بالشرائح الاجتماعية الفقيرة والمحرومة، إلى جانب نفقاتها على المؤسسات الاجتماعية والخيرية المختلفة والمحسنين من مختلف طبقات المجتمع الزياني وأصنافه الذين يعملون على زرع التكافل الاجتماعي والتضامن بين الناس للمرضى والعجزة في البيمارستانات، وهي إحدى المؤسسات الخيرية، التي أنشأها السلاطين والأمراء وأهل الخير، كصدقة وخدمة للإنسانية وتخليدا لذاكرتهم[17] .

فهذا الأمير الزياني أبو حمو موسى الثاني كان كثير الاهتمام بالأرامل، والأيتام، والمحتاجين، والضعفاء والمساكين، وأهل السجون، هؤلاء قدم لهم الجرايات في مختلف المناسبات المختلفة[18]، كما اهتم بالطلبة، فحبس عليهم الأوقاف وقام بكسوتهم كما أطعم المحتاجين[19].

إن سلاطين بني زيان قد اعتادوا على الاهتمام بإنشاء الطرق للمارة خاصة تلك التي تربط تلمسان بضواحيها وبالمدن المجاورة لها من عائدات الوقف[20] .

كما كانت مؤسسة الوقف تتكفل بالغرباء والضعفاء، وبدور الشيوخ والمسنين والعجزة، فقدمت لهم ما يحتاجونه، من إيواء وكسوة وغذاء، وقدمت الجرايات والإعانات للفقراء، والمساكين، والمعوقين، والجذامى والمكفوفين، والمرضى، والذراري، والزوجات[21]، فوجد بتلمسان أحباس الذراري أو أفراد الأسرة، فقد حبس رجل من تلمسان ريعا له على أولاده الثلاثة محمد وعلي وأبو سعيد بالتساوي بينهم، وعلى ذريتهم من بعدهم ما تناسلوا، وهذا أحد الأمثلة التي تبين دور الوقف في عملية التكافل الاجتماعي داخل المدينة[22]، كما أخذت الأوقاف على عاتقها تسديد الديون المتراكمة على الطبقات العاجزة عن دفعها[23] .

إنّ مؤسسة الوقف الزيانية ساهمت أيضا في إنشاء المرافق العامة لصالح السكان كالسقايات العمومية في مدينة تلمسان وخارجها كتلك التي

أنشئت في حي منشر الجلد، وسويقة إسماعيل في عهد السلطان أبي الحسن المريني، وفي غيرها من أحياء تلمسان وساحاتها وضواحيها[24] .

إنّ أوقاف بني زيان قد مولت المساجد والمدارس والزوايا بصفتها مؤسسات اجتماعية وثقافية، فوجهت عائداتها خصيصا لخدمة العلم والعلماء، حيث ساهمت في بناء مجموعة من المؤسسات الدينية كالمساجد (مسجد أبي الحسن) والمدارس (مدرسة مازونة، والمدرسة اليعقوبية و غيرها)، بل اعتبر ريعها المصدر الأول والممول الرئيسي لاستمرار عملها والمحافظة عليها بإجراء الإصلاحات اللازمة وما تحتاجه من فرش وكنس وترميم وصيانة، وصرف المرتبات على الأساتذة، والطلبة، والعونة، والقيم، والبواب، والمؤذن، والناظر وغيرهم، وقد بيّنت لنا ذلك نصوص التاريخ:" ثم أنشأ رضي الله عنه في كل بلد مدرسة...مع ما ينضم إلى ذلك من الأحباس التي تقام بها ويحفظ بها الوضع مما يصلح به ويبنى ويجرى في المرتبات على الطلبة، والعونة، والقيم، والبواب، والمؤذن، والناظر، والشهود، والخدام..."[25] .

وساهمت أوقاف المغرب الأوسط خلال العهد الزياني أيضا في تيسير تلقي الطلبة للعلم، فعائداته وجّهت لخدمتهم ورعايتهم، خاصة أولئك الذين كانوا يفدون على تلمسان من المناطق البعيدة فوجدوا الإيواء والإطعام والكتب والأساتذة، فتكفلت عائداتها بذلك فوفرت على عائلاتهم مصاريف الدراسة، وهذا يحمل في طياته معنى التكافل الاجتماعي .

إن الأمثلة التي أثبتت ذلك كثيرة أوردتها مختلف المصادر التاريخية والدراسات الحديثة، سنكتفي بذكر البعض منها .

فمن بين المؤسسات الدينية التي شيدت ونجحت في تأدية مهامها الاجتماعية (الدينية و العلمية) بفضل عائدات الوقف مسجد أبو الحسن، حيث اعتبرت الوثيقة الحبسية التي وضعها الأمير أبو عامر إبراهيم ابن

السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان على هذا المسجد سنة (696هـ/1296م) أول وثيقة وقفية على مؤسسة دينية تعليمية بالمغرب الأوسط، جاء نصها كالآتي: " بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، بنى هذا المسجد الأمير أبي عامر إبراهيم بن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان في سنة ستة وتسعون وستة مائة من بعد وفاته رحمه الله وحبس لهذا المسجد عشرون حانوتا منها بحائط قبلته أربع عشرا وأمامها ستة، أبوابها تنظر للجوف، ومصريه بغربي المسجد علا باب الدرب وداران اثنتان بغربيه، الواحدة لسكنى إمامه والثانية لسكنى المؤذن القيم ورجاء ثوابه الجسيم لا إله إلا هو الغفور الرحيم"[26] .

أما عن أشهر المؤسسات التعليمية التي شيدت بعائداته نذكر مدرسة مازونة، أقامها فقهاء المنطقة باعتبار أن السلطة الزيانية في آخر عهودها لم تهتم بالجانب الاجتماعي والعلمي، أمام هذا الواقع أصبح العلماء يشيّدون المدارس وليس السلاطين معتمدين في ذلك على نظام الوقف فأنشئوا مدرستهم الفقهية هناك، حتى أصبحت مازونة[27] من أهم المراكز العلمية في المغرب الأوسط بعدما تراجع الدور الريادي للعاصمة تلمسان نسبيا خلال القرن العاشر الهجري (16م) .

وهذا السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني أوسع السلاطين ملكا وجاها، ساهم في بعث الدولة الزيانية من جديد بعد فترة الإستلاء المريني (753- 760هـ/1352-1358م) على عهد السلطان المريني أبي عنان فارس، كان قد وجّه عائدات الوقف للخدمة الاجتماعية فلم تغريه كثرتها، حيث قام بترتيب أمور دولته وأحصى ممتلكاتها وقام بصرف ريع الأوقاف فيما يجب أن تصرف فيه ولم يغريه لا ذهبها ولا فضتها تذكر النصوص: "وفتح بين يديه الكريمتين أعلى الله مقامه صندوق الأوقاف المنوعة مفعما ذهبا وفضة ولم تغره صفراؤه ولا بيضاؤه "[28] .

من خلال هذا النص يتضح لنا حجم الأوقاف وتنوعها، وسياسة صرفها في خدمة المجتمع، رغم الحاجة الماسة إليها لكن لم يأخذ فلسا منها، خاصة إذا ما علمنا أن الدولة الزيانية كانت في صراع دائم مع المرينيين، لكن هذا لم يكن ليجبره على استعمالها في غير ما وقفت عليه .

ونشر بروسلار في المجلة الإفريقية نصا تحبيسيا للأوقاف التي جعلها السلطان أبو حمو موسى على مدرسة ولدي الإمام وعلى الزاوية التي أقامها على ضريح والده، نصها كالآتي: "أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين أبو حمو ابن مولانا الأمير يعقوب بن الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي زكرياء بن مولانا أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان وصل الله مفاخره وخلد آثاره الكريمة ومآثر على هذه الزاوية المباركة المقامة على ضريح والده المذكور برّد الله ضريحه فمن ذلك ما بداخل تلمسان المحروسة وجميع الطاحونة الملاصقة للزاوية والثلاثون حانوتا المعروفة بالصاغة القديمة والكوشة التي بمنشر الجلد وحمام الطبول وفرن مقسم وفندق العالية وبخارج البلد المذكور جميع الرحى السفلى بقلعة بني معلى،...وزيتون تفيدا وأرض الزيتون المذكورة ثم معصرته ورحاها، وجميع المحبس ملكه وشهرة الجميع تغني على التحديد تحبيسا تاما مطلقا عاما أو وقفا ثابتا أبديا ليصرف ما يستفاد من الحبس المذكور على معلمين العلم وطالبيه وإمام مؤذن..."[29] .

إنّ هذا النص يبين لنا حجم الأوقاف التي وضعت في خدمة مدرسة ولدي الإمام وتنوعها بين أراضي، وأشجار، ورحى، وحمامات، وحوانيت، والأشخاص الذين استفادوا منها، من معلم علم ، وإمام، ومؤذن، وتأكيد صرف ريعها في الخدمة الاجتماعية وبالأخص على معلمي العلم وطلبته .

وبفضل الأوقاف وعائداتها شيدت مدرسة وجامع العباد (سيدي بومدين) من قبل السلطان المريني أبي الحسن، الذي أوقف أملاكا ضخمة

عليهما جعلها في خدمة طلبة العلم، وذلك ما وضحته اللّوحة الرخامية داخل بيت الصلاة بجامع أبي مدين شعيب. هاتان المؤسستان قدمتا خدمة جليلة للمجتمع ولازالتا كذلك إلى يومنا هذا، علما أن الرخامة لم تحظ بدراسة علمية شافية على الرغم من أنها وثيقة غنية بالمعلومات والبيانات التي تهم الدارسين والباحثين، ويبدو من خلال ما ذكرته لنا الوثيقة الحبسية على مدرسة العباد أن دخلها كان ضخما لدرجة أنه فضل منها أموال استغلت في تعزيز ممتلكاتها بشراء أراضي أخرى تضمن استمرار تمويل المدرسة بكل ما تحتاجه .

إنّ نص قرار بناء مدرسة ومسجد العباد وما حبس عليهما نشره بروسلار في المجلة الإفريقية فضلنا عدم ذكره بالكامل فتركناه كملحق، حيث يبين لنا حجم الأوقاف التي وضعت على مدرسة أبو مدين والهدف من وضعها، وهنا سنكتفي بذكر مقتطف من نص الرخامة: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وسلّم تسليما الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمين المسلمين المجاهد في رب العالميين أبي سعيد بن مولانا أمين المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق أيد الله أمره وخلد بالعمل المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق أيد الله أمره وخلد بالعمل لصالح ذكره وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه وحبس على الجامع المذكور والمدرسة المذكورة من الجانب العلي نفعهم الله بذلك جميع جنان القصير الذي بالعباد الفوقي المشتري من ولدي عبد الواحد القصير وجميع جنان العلوج المشتري علي بن المراني وجميع الجنان المعروف بابن حويتة الكائن بزواغة المشتري من ورثة الحاج محمد بن حويتة وجميع الجنان الكبير والدار المتصلة من جهة غربيه المعروف

ذلك واسم داود بن علي المشتري من ورثته وهو بأسفل العبّاد السفلي..."[30]
.

يتضح لنا من خلال النص أن حجم أوقاف مدرسة العباد كان كبيرا وزاد عن حاجة مصاريفها الأمر الذي جعل القائمين عليه يعملون على تنميته بشراء أراضي أخرى تضمن مداخيل أكثر للمدرسة حتى تتمكن من الاستمرار في وظيفتها التي أنشئت من أجلها.

إن البعض أوقف كتبا على طلبة المدارس وأساتذتها: "مع ما حبس في جلها من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة فلا جرم كثر بسبب ذلك طلب العلم وعدد أهله..."[31]، إن سلاطين بني زيان قد اشتهروا في هذا المجال، حيث ساهموا في توفير أنفس الكتب لطلبة المدارس، بل حبسوا خزانات علمية بأكملها، ومن بين هذه الخزانات تلك التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني عام (760هـ/1359م) بجانب الجامع الكبير، تذكر النصوص: " وحبس العديد من الأفراد كتبهم ومكتباتهم الخاصة بهم لخدمة العلم وأهله، هذا الأمر يسّر على الطلبة الحصول على الكتب في عصر يصعب فيه الحصول عليها لغلائها من جهة ونفاسة بعضها وفقد البعض الآخر من جهة أخرى"[32]، وكان السلطان الزياني أبو زيان محمد الثاني (801/796هـ-1398/1393م) قد أوقف كتبا لفائدة طلبة العلم بتلمسان، فنسخ نسخا من القرآن الكريم، وصحيح بخاري والشفاء: "نسخ رضي الله عنه بيده الكريمة نسخا من القرآن وحبسها ونسخة من صحيح البخاري ونسخا من الشفاء لأبي الفضل عياض حبسها كلها بخزانته التي بمقدم الجامع الأعظم من تلمسان المحروسة..."[33] .

إنّ الأوقاف ساهمت إسهاما كبيرا في خدمة مجتمع المغرب الأوسط خلال العهد الزياني حيث كان لها دورا كبيرا في تثبيت أركان المؤسسات التعلمية والدينية ودعّمت نظامها ومكنّتها من القيام برسالتها الاجتماعية

(التعليمية والتربوية)، من خلال ريعها الذي كان إما شهريا أو سنويا نقدا كان أو عينا، تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة، فلولاه لما نجحت في تأدية وظيفتها التي أنشئت من أجلها، حيث تكفلت هذه المؤسسات بكل ما يحتاجه الأساتذة والطلبة بطريقة منظمة، وذلك من خلال دخل الأوقاف التي حبست عليها "وكثير من الطلبة والأساتذة في مختلف المواد، سواء الشريعة أو العلوم الطبيعية وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة"[34] .

وبالتالي لعبت دورا رائدا في النهضة العمرانية التي عرفها المغرب الأوسط خاصة مع السلاطين الذين كان لهم اهتمام كبير بالمجال الاجتماعي في الشق الفكري والعلمي منه، فساهمت في إنشاء العديد من المؤسسات الدينية والتعليمية كالمساجد والمدارس[35] .

وبفضل الأوقاف التي وضعت في خدمة المؤسسات التعليمية كان الطلبة أعز الناس وأكثرهم عددا وأوسعهم رزقا خصوصا خلال فترات حكم السلاطين الأقوياء الذين كان لهم اهتماما كبيرا بالعلم وأهله أمثال أبو حمو موسى الأول، وأبو تاشفين وغيرهم، فتذكر لنا النصوص حال الطلبة على عهد أحد هؤلاء: " وكان الطلبة في أيامه أعز الناس وأكثرهم عددا وأوسعهم رزقا وانتفاعا فكثر العلم في عهدهم وانتشر وأقبل الناس عليه واستعانوا بحسن إلقاءه..."[36] .

**04- تأثر المجتمع الزياني بتراجع دور مؤسسة الوقف:**

إن ما يلاحظ على المؤسسة الوقفية أواخر العهد الزياني تراجع دورها بتأثير مجموعة من العوامل في مقدمتها اغتصاب عائدات الوقف وإهماله من قبل السلطة الحاكمة عكس ما كانت عليه في السابق، فمثلا في الجانب التعليمي نجد أن الطلبة الذين كانوا أوسع رزقا قد تغيرت أحوالهم مع أواخر عهد الدولة الزيانية التي حكمها ملوك ضعاف لم يكن لهم اهتمام

كبير بالجانب الثقافي كأسلافهم، هذا الوضع أثّر كثيرا على الوضع الاجتماعي العام للطلبة، فنصوص التاريخ تبين لنا حالة الطلبة خلال القرن العاشر هجري (16مـ)، فتصفها بالصعبة والسيئة لعدم الصرامة في مراقبة الأوقاف وتعرضها للاغتصاب من أشخاص لا حقّ لهم فيها، وعدم قيام النظار بعملهم تجاهها كتنميتها مثلا حتى تضمن تلك المؤسسات ما تحتاجه من أموال، وحالة الطلبة تعكس لنا وضع الأوقاف كما هو واضح في النص التالي "...والطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم..."[37] .

إنّ ذلك يمكن إرجاعه إلى تعرض الأوقاف في أواخر عهد الدولة الزيانية إلى النهب والاغتصاب من طرف الوكلاء خصوصا، وذلك بسبب اتساع الممتلكات الوقفية التي أصبحت عرضة لطمع واعتداء أطراف عديدة بما فيهم رجال السلطة، كما أن النظار لم يصبحوا على قدر كاف من الأمانة والكفاءة التي تجعلهم يديرون الأوقاف بصورة نزيهة،[38] حيث أخذوا منها من دون أي حق، كما ظهر آخرون تحايلوا لامتلاكها، ولذلك كلفت السلطة ناظر الأحباس بكراء الأراضي قصد توزيع غلاتها على المدرسين والطلبة والإنفاق على كل ما تحتاجه،[39] .

كما كان للأوضاع العامة بالمغرب الأوسط في أواخر عهد الدولة الزيانية أثرا كبيرا على الأوقاف فغيّرت طريقها ومالت عن وظيفتها التي وجدت من أجلها، فأثّر هذا الوضع على المؤسسات الخيرية النفعية التي كانت تعتمد عليها بشكل كبير في تأدية رسالتها الاجتماعية (الدينية والتعليمية) كالمدرسة التاشفينية، حيث تراجع دورها التعليمي بضياع أوقافها، حتى جاء السلطان أحمد العاقل فأحياها وأعادها إلى العمل من جديد لخدمة المدرسة، هذا الوضع الذي آلت إليه الأوقاف راجع من دون شك إلى شخصية هؤلاء السلاطين الذين لم تكن لهم السياسة الرشيدة في تسيير

الدولة "ضعف شخصية السلاطين في أواخر عهود الدولة الزيانية وغياب المراقبة والصرامة في الإشراف على العقارات والأملاك المحبسة"[40].

إنّ إهمال وضياع الأوقاف أثر كثيرا في مجتمع المغرب الأوسط فمدارسه زالت واندثرت، وكل ذلك كان له تأثيرا سلبيا على المجال الاجتماعي.

لكن رغم ما تعرضت إليه الأوقاف آواخر عهد بني زيان فلا يمكننا إنكار دورها في عملية لتكافل الاجتماعي، حيث قدّمت خدمات جليلة للمجتمع كالرعاية الصحية، والاهتمام بالفئات المحتاجة، ولعب هذا النظام دورا في إقامة العمران ونشر العلوم، حيث شيّدت بفضله العديد من المكتبات والمساجد والمدارس فنجحت في أداء وظيفتها بفضل المداخيل التي كانت تدر عليها من عائدات الوقف، أشرف عليه جهاز سهر على الحفاظ عليه وحمايته من الزوال والاغتصاب، وعمل على تنميته وصرف ريع مداخليه فيما وقفت عليه، فساهم في تحسين الوضع الاجتماعي العام .

## الخاتمة

من خلال هذه الدراسة المتواضعة يمكننا الخروج بالنتائج التالية :

– الأوقاف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية .

– نظام الوقف في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني من بين النماذج الناجحة في العالم الإسلامي مشرقا ومغربا .

– قام الوقف خلال هذه المرحل ة مقام الخزينة العمومية للدولة .

– لم تقتصر المحبوسات الوقفية على العقارات والأراضي بل تنوعت بين عقارات وعبيد وحيوانات وغلات الأشجار وأسلحة وفنادق .

– تنوعت أوقاف المغرب الأوسط بين أوقاف خاصة ( السلطة) وأوقاف عامة ( العلماء مثلا)

– وجهت عائدات الوقف للعناية بالعلماء والطلبة والفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل إقامة المنشآت التعليمية، وبالتالي قدّم خدمة جليل ة للمجتمع .

– لقد سجلت لنا نصوص التاريخ المختلفة دور السلاطين الزيانيين في العناية بالمؤسسات الوقفية وصرف عائداتها لخدمة ما وجدت من أجله .

– إن عائدات المؤسسات الوقفية عرفت فائضا جعل المقيمين عليها يوجهونها نحو تنميتها بشراء أراضي أخرى لمضاعفة العائدات .

– تعرضت الأوقاف في أواخر أيام الزيانيين للسرقة والنهب خاصة من قبل رجال السلطة .

– ورغم ذلك إلا أن الأوقاف في المغرب الأوسط أدت دورا كبيرا في التكافل الاجتماعي .

## – الملاحق –

**–الملحق رقم 01: النص التحبيسي على مدرسة العباد .**

" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلّم تسليما الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمين المسلمين المجاهد في رب العالميين أبي سعيد بن مولانا أمين المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق أيد الله أمره وخلد بالعمل المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق أيد الله أمره وخلد بالعمل لصالح ذكره وحبّس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه وحبس على الجامع المذكور والمدرسة المذكورة من الجانب العلي نفعهم الله بذلك جميع جنان القصير الذي بالعباد الفوقي المشتري من ولدي عبد الواحد القصير وجميع جنان العلوج المشتري علي بن المراني وجميع الجنان المعروف بابن حويتة الكائن بزواغة المشتري من ورثة الحاج محمد بن حويتة وجميع الجنان الكبير والدار المتصلة من جهة غربيه المعروف ذلك واسم داود بن علي المشتري من ورثته وهو بأسفل العبّاد السفلي وجميع الرقعتين الموروثتين أيضا عنه واشتريتا من ولده علي وتغر وإحداهما بابني أبي إسحاق والثانية بابن صاحب الصلاة المغروس منهما وغير المغروس وجميع الجنان المعروف بجنان الباديسي الموروث أيضا عنه المشتري من يحيى بن داود المذكور وهو بأسفل العباد السفلي وجميع الجنان المسمى بن قرعوش القريب من جنان الباديسي المذكور الموروث أيضا عنه واشترى من ولد عبد الواحد وعيسى وجميع غروسا الأربعة أن الفوقي منها يعرف بابن ملية والثاني بمحمد بن العراج والثالث بفرج المدلسي والرابع بابن الفدا قايصا، وهي التي ورثت أيضا عنه واشتريت من جميع ورثته وجميع داريه اللتين بجوفي مسجد العباد العبّاد السفلي المشتري أيضا منهم والنصف الواحد من جنان الزهري مع جميع بيتي الأرحا المبني بقربه وذلك بجهة الوريط وجميع بيتي الأرحا المبني أيضا بقلعة بني

معلى خارج باب كشوط من تلمسان حرسها الله وجميع الحمام المعروف بحمام العالية الذي بداخل المدينة المذكورة بجهة باب الحديد مع حانوتيه متصلتي به على يمين الخارج من بابه القبلي ودويرته المتصلة به من جهة جوفه ومصريته المحملة على أسطوانه والنصف الواحد الحمام القديم الذي بداخل مدينة المنصورة حرسها الله ومحرث عشرين زوجا بتيمن يوبن من زيدور من قطر تلمسان المذكورة برسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء والحجاج المقيمين والواردين عليها واثرة عشرة أزواج بالموضع المذكور برسم ساكني المدرسة المذكورة بحساب خمسة عشر صاعا للطالب الواحد في كل شهر وجميع جنان سعيد ابن الكماد المشتري من ورثته وهو الكائن فوق العباد العلوي وتحت ساقية النصراني وجميع جنان القائد مهدي المشتري من ورثته الكائن بزواغة المحروسة وجميع جنان التفريسي الكائن تحت الطريق المارين عليها للوريط المشتري من ورثته وجميع أرض جنان ورثة التفريسي المذكور الكائن غربي الزاوية المشتراة منهم وبقية الرحاب المتصلة بالجامع المذكور الباقية من الجنان المريد بعضه في الجامع المشتري من ورثة محمد بن عبد الواحد ومن ورثة أبيه وأمه وعمتهم ميمونة ولم يبق لورثتهم حق ولا مطلب" .

**بوداود عبيد، انتشار ظاهرة الأوقاف، المرجع السابق، ص 348-347**

**- الهوامش:**

1- ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، قدم له العلامة الشيخ عبد الله العلايلي وأعاد يناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط، ، دار الجيل بيروت، دار لسان العرب بيروت، 1998 م، **المجلد02** ص 969 .

2- أ. جي. بريل، **دائرة المعارف الإسلامية**، ، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى، 1988، **ج32**ص 10154.

3- بوداود عبيد، **انتشار ظاهرة الأوقاف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين ( ق 13-15م)، ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، السنة الجامعية، 2005-2006 ، ص 03.

4 - بوداود عبيد، المرجع السابق، ص 04 .

5- بوداود عبيد،" **قراءة في أوقاف مدارس وزوايا تلمسان الزيانية**"، مواقف، العدد 03، ديسمبر 2008، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، ص 41 .

6- أبوا القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998،ص-ص 227-228 .

7- دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، ص 10154-10155 .

8- دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، ص 10155 .

9- سورة الحج، الآية رقم ( 77) .

10- سور آل عمران، الآية رقم ( 92) .

11- النووي أبو زكرياء يحي بن شرف الدمشقي (631- 676هـ)، **رياض الصالحين**، شركة شهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 404 .

12- هو الذي يتولى النظر في العقار الموقوف، ويلزمهم أن يفصلوا أهل الحاجة وأهل العيال على غيرهم، ينظر الحاج محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان دولة بني زيان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 ،ص 95 .

13- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 229 .

14- عبيد بوداود، **انتشار ظاهرة الأوقاف**، المرجع السابق، ص159، أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص 230 .

[15]– د- سامي الصلاحات، **دور الوقف في تأهيل الأيتام اجتماعيا واقتصاديا مؤسسة الأوقاف وشؤون القصر بدبي نموذجا**، المؤسسة الخيرية الملكية، البحرين، 2008م، ص 4-5 .

[16] ـ د سامي الصلاحات، المرجع السابق، ص 02 .

[17]– عبد العزيز فلالي، **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، ج01**، موفم للنشر، الجزائر،2011م ص 226 .

[18]ـ عبد العزيز فلالي، المرجع السابق، ص 226 .

[19]-- ابن مرزوق التلمساني ، **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 ، ص 479 .

[20]– عبد العزيز فلالي، المرجع السابق، ص 226 .

[21]ـ الونشريس أبي العباس أحمد بن يحيى (ت 914هـ/1508م)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، ، نشر وزارة الأوقاف وال شؤون الإسلامية للملكة المغربية، 1981م ، **ج07**، ص 248 – بسام كامل عبد الرزاق شدقان، **تلمسان في العهد الزياني**، رسالة ماجستير في التاريخ ، إشراف الدكتور هشام أبو رميلة، جامعة النجاح الوطنية نابلس فلسطين، 2002م ، ص 170

[22] – بسام كامل، المرجع السابق، ص 171 .

[23] ـ عبد العزيز فلالي، المرجع السابق، ص 226 .

[24] ـ نفسه، ص – ص 226-227 .

1– ابن مرزوق التلمساني ، **المصدر السابق**، ص 406-407.

[26]– عبيد بوداود،" **قراء ة في أوقاف مدارس وزاوايا تلمسان الزيانية**"، المرجع السابق، ص 42 .

[27]– مازونة إحدى دوائر ولاية غليزان ، تبعد عن مقر الولاية بحوالي تسعين (90كلم)، يقال أن مغراوة من شيدتها خلال القرن السابع الهجري، وهي مدينة عتيقة قديمة ما زالت محافظة

على بعض آثارها التاريخية مثل مدرستها الفقهية والجامع الذي أحدثت عليه ترميمات، سميت بمازونة نسبة لمزوينة الماء الدائرية، كانت قبلة للعلماء .

[28]– عبيد بوداود، المرجع السابق، ص 43، عن ابن خلدون يحي .

[29]– عبيد بوداود، المرجع السابق، ص 44-45 ، نقلا عن بروسلار .

[30]– عبيد بوداود ، **انتشار ظاهرة الأوقاف**، المرجع السابق، ص 347-348 .

- c.Brosslard, ¨les inscriptions arabes de Tlemcen IX Mosquée et medersa de sidi boumdian¨, revue Africaine,3eme année ,n:. 410-412 ,aout,1856,p 18

[31]– عبيد بوداود، المرجع السابق، ص 407 .

[32]– المرجع نفسه، ص 230 .

3- التنسي محمد بن عبد الله، **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان( تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)**، تحقيق محمود بوعياد، صدر عن وزارة الثقافة، 2007، ص 211 .

4- ليون الإفريقي الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف افريقيا**، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، ج02، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، **ج02**ص 20 .

[35]– عبيد بوداود، المرجع السابق، ص 48 .

[36] - ابن مريم المديوني التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون تاريخ، ص 169-170 .

[37]– ليون الإفريقي، المصدر السابق، ج02، ص 21 .

[38]– عبيد بوداود :" **الاعتداء على الأحباس نماذج من تاريخ المغرب الإسلامي**"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، العدد11، 2010، ص 43 .

3 – صالح بن قربة وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 165-157 .

[40]- صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 158 .

## - قائمة المصادر والمراجع -

### أ - القرآن الكريم .

### ب- المصادر :

1- ابن مرزوق التلمساني ، **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغبرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

2- ابن مريم المديوني التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون تاريخ .

3- ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، قدم له العلامة الشيخ عبد الله العلايلي وأعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط، دار الجيل بيروت، دار لسان العرب بيروت، المجلد02، 1998 م .

4- التنسي محمد بن عبد الله، **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان( تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)**، تحقيق محمود بوعياد، صدر عن وزارة الثقافة، 2007 .

5- المازوني أبو زكرياء يحي المغيلي، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق الدكتور مختار حساني، نشر مخبر المخطوطات قسم علم المكتبات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ، ج03، 2004 .

6- النووي أبو زكرياء يحي بن شرف الدمشقي (631- 676هـ)، **رياض الصالحين**، شركة شهاب للنشر والتوزيع، الجزائر .

7- الونشريسي احمد بن يحي( ت 914هـ)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب**، خرجة جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ج07.

8- ليون الإفريقي الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف افريقيا، ج02**، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج02، 1983 .

**ت- المراجع بالعربية** :

1- أ. جي. بريل، **دائرة المعارف الإسلامية**، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى، ج32، 1988 .

2- الصلاحات سامي ، **دور الوقف في تأهيل الأيتام اجتماعيا واقتصاديا مؤسسة الأوقاف وشؤون القصر بدبي نموذجا**، المؤسسة الخيرية الملكية، البحرين، 2008م .

3- بن قربة صالح وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007 .

4- بوداود عبيد :" **الاعتداء على الأحباس نماذج من تاريخ المغرب الإسلامي**"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، العدد11، 2010 .

5- بوداود عبيد، **انتشار ظاهرة الأوقاف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين ( ق 13-15م)، ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، السنة الجامعية، 2006-2005 .

6- // //" **قراءة في أوقاف مدارس وزوايا تلمسان الزيانية**"، مواقف، العدد 03، ديسمبر 2008، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر .

7- سعد الله أبوا القاسم ، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998 .

8- شاوش الحاج محمد بن رمضان ، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان دولة بني زيان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 .

9- شدقان بسام كامل عبد الرزاق ، **تلمسان في العهد الزياني**، رسالة ماجستير في التاريخ ، إشراف الدكتور هشام أبو رميلة، جامعة النجاح الوطنية نابلس فلسطين، 2002م .

10- فلالي عبد العزيز ، **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**، موفم للنشر، الجزائر، ج 2011،**01**م

**ث- المراجع باللّغة الأجنبية :**

1-c.Brosslard, ¨les inscriptions arabes de Tlemcen IX Mosquée et medersa de sidi boumdian¨ , revue Africaine,3eme année ,n:18,aout,1856,p 410-412 .